- الاسم واللقب :حسينة العواطي /هالة خدروش
- الجنسية:جزائرية
- الرتبة:طالبتا دكتوراه
- التخصص: نقد معاصر
- الجامعة:محمّد الصديق بن يحي/جيجل
- الهاتف المحمول: 0675228575/0656192537
- البريد الإلكتروني: hanensaad1992@gmail.com/halakhad90@gmail.com

- المحور: التراث العربي والمقاربات الحداثية. الانجازات والمشاريع
- عنوان المداخلة: "الحكاية والتأويل" بين سحر السرد وجديد القراءات

ملخص:

شهدت الدراسات النقدية العربية المعاصرة حالة مد والجزر حول طبيعة التفاعل بين النص العربي والنظريات النقدية السردية لوعي الدارسين والنقاد العرب لطبيعة المفارقة بين الأرضية الفكرية والفلسفية التي احتضنت كلا منها ،ضمن هذا التمفصل ظهر ثلة من النقاد العرب ممن آثروا العودة إلى التراث العربي وإعادة قراءته بمنظور حداثي ومعاصر بالاستفادة من منجز الآخر دون المساس بخصوصية وأصالة الأنا ،و في طليعتهم "الناقد عبد الفتاح كيليطو" الذي عُني هذا البحث بأحد مؤلفاته وهو "كتاب الحكاية والتأويل" حيث أبحر الناقد في عوالم السرد العربي القديم مفجرا مكنوناته الجمالية متوسلا بتوليفة منهجية وفسيفساء إجرائية تستدعيها طبيعة هذه النصوص الأبية، متجاوزا شرك القولبة المنهجية للنصوص.

1. مقدمة:

تعتبر الحركة النقدية عبر تطورها ومساراتها سلسلة من النظريات والاتجاهات التي تشد بعضها بعضا، فكل نظرية تأتي على أعقاب أو أنقاض نظرية أخرى إما مكملة لها أو لسد ثغرة خلفتها، وكل اتجاه نقدي وليد ظروف وسياقات معرفية ليواكب المستجدات الثقافية والأدبية، لهذا فأن لكل فترة زمنية ملامحها الفكرية والفلسفية فإن هذه الملامح تنعكس على الأدب والنقد لا محالة وتوسمه بطابعها الخاص، فنجد أن كل اتجاه يعمل بحسب ماترتسمه دواعي منظومته الفكرية والفلسفية التي بنيت على أسس ومرتكزات منهجية وتوجهه النقدي.

وهو ما يفسر ظهور اتجاهات نقدية محايدة ،فكانت بذلك الاتجاهات السياقية وليدة القرن التاسع عشر بعد التطور الحاصل في ميدان العلوم الإنسانية (التاريخ، علم الاجتماع، علم النفس ...) وكان مطلع القرن العشرين وليد الاتجاهات النسقية التي اهتمت ببنية النصوص ونسقها مبعدة بذلك كل الملابسات الخارجية ،تحت تأثير النزعة العلمية التي عمّت أوروبا في تلك الفترة والتطور الذي شهدته الدراسات اللغوية ،أما النقد المعاصر وهو في أوج مواكبته للظروف الحضارية والثقافية ،حركة إنتاج واسعة كان من جرائها إزالة الحدود بين ما هو أدبي وما هو نقدي وما هو فلسفي ورفع الحواجز بين الأنواع الأدبية.

وفي خضم هذا التنوع والتطور الغربي المستمر يحاول النقد العربي أن يلحق بالركب رغم ما يتخبط فيه من مشاكل تتعلق بالآخر المنتج والأنا المستهلك، هذه المشاكل التي لا تخرج عن محددات التأسيس والمنهج والمصطلح.

وضمن هذا التعثر الذي يشهده النقد العربي المعاصر الذي يصل إلى درجة المعضلة التي ينبغي أن تتجاوز من أجل تحقيق شروط العلمية والموضوعية ،انقسم النقاد العرب إلى اتجاهات عدة ،بين مؤيد ومعارض ،أما الاتجاه الأول فقد انكب على هذه النظريات تنظيرا وتطبيقا، أما الاتجاه الثاني فقد تخوّف من انعكاسات هذه النظريات النقدية على النقد العربي لوعي منه باختلاف سياق الانتاج من سياقات التلقي، وبين هذا الاتجاه وذاك برز اتجاه ثالث أمسك العصا من وسطها ،اتجاه تعامل مع هذه النظريات والمناهج بحذر شديد، فقم دراسات تستفيد من مكاسبه هذه النظريات دون أن تمس بخصوصية النص العربي.

وضمن هذا الاتجاه الأخير تندرج أعمال الناقد عبد الفتاح كيليطو الذي آثر أن يعود إلى الذاكرة السردية العربية القديمة ويعيد قراءتها بمنظور حداثي معاصر، مستفيدا من المنجز الغربي النقدي، وهو موضوع هذه الدراسة التي أفردنا لها مجموعة من التساؤلات أبرزها، ما طبيعة الاتجاه النقدي الذي سلكه هذا الناقد في مقاربة النص السردي العربي القديم؟ وما هي منهجيته في القراءة؟ لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار الاختلاف الموجود بين المنهج المطبق والنص المطبق عليه من حيث المرجعية والفترة الزمنية. ما هذا النزوع من طرف الباحث إلى تنويع الإيقاعات البحثية من النص النقدي إلى الخرافة إلى نص المقامة...؟ وهل صاحب هذا التنوع تنوعا منهجيا؟ وكذا التساؤل عن القضايا النقدية التي ناقشها الناقد في كتابه الحكاية والتأويل والتي افترض وجودها في سياق القراءة؟

التراث وعاء ذاكرة الأمة والرجوع إليه وإعادة قراءته من جديد هو نوع من إعادة تحقيق التوازن والوقوف في وجه الاستيعاب وتحديات العصر، وهو المنحى الذي سلكه "عبد الفتاح كيليطو"، فأعماله من المحاولات المغاربية الألى التي تقدم (معالجة جديدة للأدب من خلل مقاربة منهجية ارتضاها الباحث لنفسه)[i] يهدف من خلالها إلى إحياء الدرس النقدي العربي.

فالمتمعن في الأعمال التي يقدمها حول المسرودات العربية القديمة يجد أنها تضمر العديد من الإجراءات واستراتيجيات النظرية الغربية المعاصرة؛ كون هذا الأخير مواكب لمستجدات الساحة النقدية وهو ما عبر عنه ب (لم أعد أقرأ كما كنت في السابق وعندما تتغير القراءة تتغير الكتابة لا محالة).[ii]

فما يقدمه يعد فهما مختلفا لهذه النظريات من خلال إعادة النظر في بعض المفاهيم بداية بكتاب الأدب والغرابة -1982- والوقوف عند مفهوم النص متجاوزا فكرة الأنواع الأدبية فقدم له مفهوما من حيث كونه يشمل كل الأنواع الأدبية التي تعتبر أدبية[iii] كما يشدد على مراجعة بعض التصورات والمفاهيم مثل مفهوم المؤلف وهو الأمر الذي أفاض فيه في أعماله اللاحقة "الكتابة والتناسخ مفهوم المؤلف في الثقافة العربية" -19850-

فكيليطو قد عرج على معظم النظريات وجمع بين إجراءاتها في المقاربة بدءا بالمناهج الحداثية وصولا إلى التفكيك والدراسات الثقافية، وليس بعيدا عن هذا التصور يرى "سامي عبابنة " أن كيليطو قد تمثل الفكر ما بعد بنيوي في فترة مبكرة في دراسته للمقامات والجاحظ والنثر القديم، ويتجلى ذلك في الإحالات المتكررة إلى ديريدا، وتوظيف مصطلحات التفكيكية على غرار الحضور والغياب، الإرجاء وفائض الدلالة).[iv]

فبنى قراءته وفق أهم مرتكزات التفكيك مثل إلغاء مركزية النص والهامشي في النصوص والاعتماد على الدال اللغوي في بناء عوالمه التأويلية وتتجلى بوضوح في قراءته للمقامة الخامسة حيث يظهر النزوع والرغبة في الكشف عن قوة عمل اللغة داخل نص المقامة، إن قراءته للمقامة تجسد فكرة أن المعنى منتج اللغة، وليس ناتجا عن مؤلفها الحريري أو سياقها التاريخي. [v]

2. منهجية عبد الفتاح كيليطو في القراءة:

1.2. منهجية اللا منهج:

يختلف "عبد الفتاح كيليطو" عن غيره من الدارسين في نظره للعلاقة التي تربط المنهج النقدي بالنص المدروس لا يرى في هذه المناهج الأداة السحرية التي تحقق ما يتمناه ويصبو إليه، أو أنها قادرة على استنطاق النص، بل ليست سوى آليات إجرائية يستعان بها (وأنها لم توضع أصلا لدراسة الأدب، فدراسة الأدب مغامرة يعرف صاحبها أين يبدأ لكن لا يعرف أين ستقوده خطاه).[vi]

ولأن الأدب كيان لغوي تتداخل فيه جوانب نفسية واجتماعية وثقافية وفلسفة وعقائدية... فإن دراسته تكون في ضوء الأسئلة التي يطرحها علم النفس وعلم الاجتماع واللسانيات... فكيليطو كثيرا ما ردد (أن الأدب يدرس في ضوء الأدب وقد يدرس في ضوء علوم أخرى).[vii]

فالقراءة وفق آليات وإجراءات وخلفية منهج ما، تجعل من الباحث أو الناقد يعمد-شعوريا أو لاشعوريا- إلى تكييف النص وتطويعه وفق هذا المنهج، وبالتالي الإساءة إلى النص وبتره.

فالتطبيق المنهجي عند كيليطو هو عدم التقيد بمنهج بعينه لأن ذلك محكوم إلى النص نفسه الذي يوجه عملية القراءة ويمنح القارئ أو النقاد المفاتيح الضرورية لفك شيفرات، بل يفرض عليه المنهج أحيانا، فالمنهج أو القراءة المنهجية مطلوبة ولكن فرض منهج ما أو جهة قرائية معينة هو الدفع بالقارئ نحو ممارسة نوع من القراءة مع سوء النية، أو ما يطلق عليه الناقد بالقراءة المغرضة أو القراءة على طريقة بروكوست.[viii]

يرى "كيليطو" إن طبيعة النصوص الغامضة أو المراوغة هي التي تدفع بالدارس إلى التوسل بمنهج ما لمحاولة إزالة هذا الغموض الذي يكتنفها ويشيع النور فيها، كما أن هذا التصور يتراءى عندما يتعلق الأمر بنصوص واضحة، تحوي بداخلها ما يساعد على قراءتها، لكن الدارس يعتقد أن الوضوح المفتعل يخفي وراءه أشياء أخرى أو أنه وضوح نسبي، وبالتالي وجب الاستعانة بمصباح منهجي.[ix]

ما يمكن أن نستشفه من خلال أعمال الناقد عبد الفتاح كيليطو "كتاب الحكاية والتأويل" تحديدا، أنه في مقاربته وتأويله يوظف توليفة من الإجراءات المستقاة من مناهج نقدية مختلفة ومتعددة، فلا يرى نصه ملزوما بتطبيق منهج نقدي ما بحذافيره وهذا راجع لأمرين:

الأول راجع لطبيعة المناهج النقدية، فكما هو معلوم أن هذه المناهج سواء حداثية أو ما بعد حداثية ذات أصل غربي محض؛ أي أنها نشأت في أرضية فلسفية وفكرية وحضارية غربية تختلف عن البيئة العربية.

والأمر الثاني راجع لخصوصية النصوص العربية الكلاسيكية التي يطبق عليها أو يتناولها بالدراسة وهذا ما يتضح من خلال قوله: (لن ينفعني أن أستشهد بهذا الدارس أو ذاك، وهذا الفيلسوف أو ذاك، إذا لم تستجب النصوص العربية للتحليل الذي أقترحه عليها، لابد أن أعرض تفسيري على أكبر عدد ممكن من النصوص الكلاسيكية، بهدف التحقيق والمراجعة، لابد أن أقنع نفسي وأقنع الغير بأن هذا التفسير يلائم الثقافة العربية).[x]

فناقدنا يتلافى أن يحمّل وحضارية وتاريخية النصوص ما لا تحتمل أو يقوّلها ما لا تقول، ولأنه يعي تماما أن هذه المرويات العربية وليدة سياقات ثقافية واجتماعية وحضارية وتاريخية معينة، فإنه يراعي هذه الخصوصية أثناء التحليل والتأويل، فطبيعة النص هي التي تفرض عليه المسار الذي يسلكه أو الإجراء أو الاستراتيجية التي يتوسل بها.

فالتأويل والتحليل الذي يقدمه كيليطو لنص ما له ما يبرره، ألا وهو وجود صدى له في نصوص عربية أخرى، فغالبا ما نجده يفسر ويؤوّل في سياق النصوص الكلاسيكية بصفة عامة، خاصة تلك النصوص التي يتغيب فيها المؤلف[xi] أو يستحيل وصفها في سياقها التاريخي.[xii]

مما يؤكد عدم ثبوت عبد الفتاح كيليطو على منهج واحد، والامتثال لضوابط ذلك المنهج، إنه حتى في تلك الدراسات التي يدرجها ضمن تصنيف معين مثل "كتاب الأدب والغرابة دراسة بنيوية في الأدب العربي القديم" (اعتمد على المنهج البنيوي وربطه بالوصف والتفسير والتأويل، من خلال استقراء اللغة في سياقاتها النصية مع تنويع المنظورات والتصورات في التحليل والمقارنة والاعتماد على الشكلانية الروسية والسيميائيات وجمالية التلقي والاستناد إلى آليات التفكيك والتركيب والتأويل).[xiii]

وهو المنظور الذي نجده عند الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض في دعوى اللامنهج في تشريح النص الأدبي الذي اعتبره هو المنهج الأنسب، ولقد تحدث مرتاض عما أطلق عليه (العطائية)؛ (أي ما يمكن أن يعطيه إيانا النص الأدبي من خلال البحث في مكامنه وزواياه (...) وكأن النص الأدبي يتحدد وينبعث من خلال كل قراءة يقوم بها القارئ).[xiv]

فتأويلية كيليطو تستند إلى خلفيات ومرجعيات متعددة ومختلفة وتتلاقى أن تدخل النصوص السردية التي يدرسها في كثافة العتاد المنهجي في الآن نفسه، فيؤول وفق ما تتطلبه وتستدعيه النصوص من آليات ومناهج متعددة، دون أن نلحظ أو نصطدم بالتعقيد أو التكثيف المصطلحي، فدراسات كيليطو أشبه ما تكون بالكتابة الإبداعية في وضوحها ولغتها وجمالياتها، وكذا افتقارها للتعقيد والتوظيف المكثف للمصطلحات والتنظير.

ألحق الناقد "عبد الفتاح كيليطو" مصطلح "التأويل" بعنوان الكتاب ليحدد الإطار الذي سيسلكه في مقاربته، وعلى طول صفحات الكتاب لا يفتأ يذكر عملية التأويل والمؤول؛ أي أنه يقر بأنه يقدم تأويلا خاصا للنصوص والحكايات التي اقترحها، إلا أنه في كل دراسة يلج باب التأويل والقراءة مستعينا بأدوات منهجية مستقاة من العديد من المناهج والتي يراها مناسبة للنص وقابلة للتطويع له.

2.2. القراءة النفسية :

لا يمكن الجزم بأن عبد الفتاح كيليطو قد أوّل حكاياته في ضوء مقولات التحليل النفسي لفرويد، إلا أن في ثنايا كلامه ما يشير إلى تأثره بهذا الأخير والاستفادة من نظريته في التحليل، لاسيما وأنه في أحد حواراته متحدثا عن "كتاب الحكاية والتأويل" يؤكد أنه في تلك الفترة كان يقرأ لفرويد والبنيويين، ولا شك أن هذه القراءات قد أغنت نظرته للمؤلفات المدروسة.

فينظر كيليطو إلى "قضية الصدق والكذب" بهذا المعيار في دراسة النصوص من هذه الزاوية، زاوية التحليل النفسي قائلا: (ولعمري ما معنى الصدق والصراحة؟ من يستطيع عند دراسة النصوص الأدبية، أن يستعمل هاتين الكلمتين، وقد توطدت فلسفة الوعي المغلوط بعد نيتشه وماركس وفرويد).[xv]

ليؤكد أن الصدق شيء مستبعد أثناء الكتابة والقراءة، بعدما جاء به هؤلاء فيضيف (أن اللسانيين وأصحاب التحليل النفساني يلحّون اليوم على أن المواصلة بين الناس مبينة أساسا على المراوغة والاحتيال والكذب، فكل منا كاذب، تكلم أو اخلد إلى الصمت)[xvi] وعلى القارئ أن يسعى إلى اكتشاف ما يستبطن النص وصاحبه، لأن الكتابة -حسب هؤلاء- عملية تنفيس عن لاوعي صاحبها.

من زاوية أخرى يتحدث كيليطو عن ثنائية "الألفة والغرابة" فيحلل البيت الشعري لأبي تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وفق خلفية المنهج النفسي قائلا: (أظن أننا لسنا بحاجة إلى معرفة عميقة بالتحليل الفرويدي لنقتنع بأن الحب الأول هو حب الأم، سيقال: لا شيء يضمن لنا أن أبا تمام قصد إلى هذا المعنى)[xvii] فما قصده أبو تمام هو المرأة التي يتعلق بها الفتى عندما يبلغ مع المراهقة وهو ما يؤكده البيت اللاحق له:

وكم منزل بالأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

فكيليطو يرى أن الشيء الغريب عن المرء في حقيقته متعلق بالأمر مألوف حال الزمن بينهما، والأشياء والمناطق المجهولة التي يكشفها الشعر في الحقيقة مناطق سبق المرء أن جال وطاف في أرجائها (فالحب الأول، والمنزل الأول، العلم الأول، الرحم: عبارات

تشير إلى الطبقة النفسية المغطاة، والتي يقوم الشعر بكشفها عندما ينتقل المتلقي من العقل إلى الاحساس)[xviii] فبهذا المعنى يكون الشعر تعبيرا عن أشياء منسية ودفينة في أعماق النفس، ووظيفته تكمن في إماطة اللثام عنها.

ويشير كيليطو -في هامش كتابه- احتمال العودة إلى دراسة ما قاله فرويد حول مسألة اللعب عند الطفل، والتي يرى فيها فرصة لإعادة صياغة عالم يوافق رغباته وتصرفاته، إلا أن دراسة كيليطو ستكون ذات علاقة بالكيمياء والسحر والبدعة.

3.2. القراءة البنيوية :

تتجلى القراءة البنيوية في كتاب "الحكاية والتأويل" من خلال استثمار الناقد لبعض آليات التحليل البنيوي في بناء تحليله منها:

الدراسة الوصفية لأبنية النصوص وتفحصها، نظرا لأهمية الوصف في الكتابة الإبداعية أو النقدية، فلا يمكن إجراء أي مقاربة مهما كان نوعها دون الاعتماد على إجراء الوصف و"كيليطو" يصف الأبنية ظاهريا ويمعن النظر فيها إلا أنه لا يقف عند الظاهري منها بل ينفذ إلى ما يستبطن هذه الأبنية وما تخفيه.

دراسة العلاقات الداخلية للنص؛ فكثيرا ما نجد كيليطو ينطلق في تحليله من علاقة الكلمات والعبارات ببعضها البعض وما يمكن أن تقدمه هذه العلاقات والارتباطات من دلالة محتملة، تساعد على تقديم تصور جديد حول النص.

استعمال ثنائية التحليل والتركيب؛ حيث يعمد "كيليطو" في معظم الدراسات التي يقدمها إلى تفكيك وتحليل أجزاء النص أو الحكاية وتأويلها، ثم إعادة ترتيب وتركيب أجزائها لصياغة نص أو حكاية جديدة، ولعل خير مثال على ذلك تحليله للأبيات الشعرية التي أوردها الجرجاني إلى عبارات ومفردات ثم تأويل كل مفردة على حدة وإعادة جمع شتاتها وتركيبها في حلة جديدة.

يقدم "كيليطو" تأويله ضمن الحقول الدلالية المتقابلة أو الثنائيات الضدية مثل: الظاهر / الباطن، الوضوح /الغموض، الحقيقة/الوهم، المحتوى/الغلاف، الليل /النهار، الألفة /الغرابة... وغيرها([xix])، ذاهبا إلى أن الكثير من النصوص السردية العربية القديمة يمكن إخضاعها إلى هذا النسق من الدراسة وفق هذه الرؤية وفي إطار التعارض بين الظاهر والباطن يدرج حكاياتّ كليلة ودمنةّ والصور الواردة فيها مثل: الفخ، النار، الدّر، الجوزة...

ويرى أن كل حكاية أو صورة ذات بعدين أو وجهين ظاهر/ جلي وباطن / خفي، وهو كذلك المنطق الذي يحكم السرد أو الكلام بشكل عام حيث (يتجلى هذا التناقض في الوظيفة المزدوجة للسرد، باعتباره وسيلة لإيصال الحكمة للسخفاء، كما يمكن أن يكون وسيلة لحجبها عنهم). [xx]

فكيليطو يريد أن يقول إن الكلام مبني أساسا على الضدية، وذو وظيفيتين، فقد يخدع ويخفي ما يريد قوله المتكلم كما يمكن أن يفضحه مهما حاول هذا الأخير المراوغة أو التكتم.

وفي" قصة الصياد والعفريت" يستخرج "كيليطو" عناصر يمكن إرجاعها إلى ثنائية: الحل والربط وهي: الدخان، العقل، الشبكة، العهد اللغز، العقد والحل، ويحاول إيجاد بين هذه العناصر في ضوء هذه الثنائية كما نعثر على ثنائية الجّد والهزل في الدراسة التي أفردها

لِ "أبي العبر والسمكة".

4.2. نظرية القراءة والتلقي:

يحتفي كيليطو بالقارئ ويعطيه أهمية بالغة باعتباره المعني بالنص الذي يكتبه، فيخاطب القارئ العام قبل المتخصص، فهو الذي يصرح قائلا: (أسعى إلى الوضوح جهد المستطاع ألا تكون دراستي فكرة مبهمة أو جملة معقدة، بل إني أشرح في الهوامش، ثم إني أشركه في التحليل الذي أقوم به فأعقد حوارا معه بين الفينة والأخرى بحيث يشعر بأنه معي مباشرة بما يقرأ).[xxi]

فيأخذ تأويل كيليطو طابعا حواريا مع القارئ، فيسائله ويتوقع إجابته ويقدم احتمالات ويناقشها، هذا الطابع الحواري الذي يكسر الرتابة ويجذب القارئ ويلفت انتباهه ويحفزه على متابعة القراءة، وكذا استفزازه ولفت نظره إلى شيء ما أو قراءة النص وفق

منظور آخر، ويعمد إلى مساءلة القارئ وهو نوع من المشاركة القرائية فيقول في مطلع تأويل "قصة الصياد والعفريت": (سأطرح الآن على القارئ السؤال التالي: من هو بطل حكايتنا؟ لا شك أنه سيجيب على الفور: الصياد، أما إذا سألته لماذا؟ فإنه سيتردد وسيجد بعض الصعوبة في العثور على جواب)[xxii] وبنفس الطريقة يتناول باقي أجزاء القصة بالتحليل والتأويل وكذا النصوص الأخرى.

ينظر كيليطو إلى النصوص التي يدرسها من زاويتين، زاوية الكاتب الناقد وزاوية القارئ، فيضع نفسه مكان الأخير، لهذا نجده على دراية بما يمكن أن يجول في خلد القارئ، يباغته بأسئلة كما يهيئ إجابات واحتمالات لأسئلة لم يطرحها.

فيعلق على المدلول الجنسي الذي يقدمه كتأويل للصور الشعرية الواردة في كتاب "أسرار البلاغة " السالفة الذكر قائلا: (إن زعمت أن لهذه الصور مدلولا جنسيا فإن تأويلي سيبدو سمجا قبيحا للبعض)[xxiii] ثم يوجه كلامه للقارئ الذي يتمتع بالفضول الفكري على أنه سيعلن تعاطفه اتجاه تأويله مع بعض التردد والتحفظ حتى يبرهن له بصفة مرضية، لأن هذا النوع من القراء لن يقبل بالتأويل دون أدلة دامغة، فيجب على لسان هذا القارئ قائلا: (لاشك أنك أخذت هذه الفكرة من الفيلسوف باشلار (...) لكن احتماءك بهذا الفيلسوف لن ينفعك، لأن النصوص التي حللها باشلار بعيدة كل البعد عن الثقافة العربية)[xxiv] ليقدم كيليطو خطته البديلة-والمقنعة- بوجود القائد العربية القديمة التي تتحدث عن الحرقة من شدة الوجد والحب وبالتالي وجود علاقة بين النار والجنس.

وليس من الصعب أن نلحظ أهم ما تنادي به نظرية القراءة أو استجابة القارئ في متن الكتاب كاعتبار القارئ مشاركا في إنتاج المعنى، وهو مامنه في قراءة حكاية "كليلة ودمنة" وسبب تأليف هذا الكتاب؛ فالناقد يضع القارئ في حسبانه أثناء التحليل ويعتبره مشاركا في إنتاج النص (فلابد إذن، أثناء التحليل، من الانتباه إلى مشاركة المتلقي في إنجاح الكتاب؛ فلولا المتلقي لما كان هناك سرد ولا تأليف)[xxv] فهو يعزي سبب التأليف إلى رغبة المتلقي، وأن أساس السرد هو المستمع فـ (يجعل المتلقي يشارك في العملية السردية فإذا لم يبد المتلقي رغبة في الاستماع فإن السرد يصبح بلا معنى بلا جدوى)[xxvi] فالتأليف والسرد يكون بإيعاز من المتلقي وتلبية لرغبته ونزولا عند طلبه.

أما مصطلح أفق الانتظار وهو إحدى المقولات التي تقوم عليها نظرية القراءة وجمالية التلقي، فيعترض كيليو لهذا المفهوم في أكثر من موضع؛ فنجده في الدراسة التي أفردها لأبي العبر حيث وصف أسلوبه في مخاطبة الآخرين بـ (تلقي المخاطب بما لا يترقبه)[xxvii] أي كسر أفق انتظارهم، فأبو العبر يتسم بالذكاء والقدرة على معرفة وتوقع ما يجول بخاطر الآخرين إلا أنه يعتمد سوء الفهم ويقوم بإفحام مخاطبه

بما لا يتوقعه فيجعله محطة للسخرية والاستهزاء.

ويستحضر هذا المفهوم أيضا في قراءة سيرة "ابن خلدون" وعلاقتها بمسألة التجنيس فيرى أن العنوان (يفتح أفق انتظار يرتبط بالنوع نفسه؛ أي أن القارئ ينتظر وصفا للبلدان التي زارها صاحب الرحلة (...) وينتظر القارئ كذلك ذكرا لخصائص البلدان وطقوسها).[xxviii]

فكيليطو يشير إلى أن إدراج مصطلح الرحلة في عنوان السيرة الذاتية لابن خلدون يجعل من القارئ يتوقع أن يعثر على خصائص فن الرحلة ضمن السيرة الذاتية.

تعدد القراءات ونسبيتها من المسائل التي نلمسها في حديث كيليطو، وتأويليه قراءة من القراءات الممكنة أو المقترحة فهو يرى (أن المفسر لا ينبغي أن يغرى بتفسيره ويقدمه على أنه التفسير الوحيد للنص)[xxix] فقراءة كيليطو تقوم على المناقشة وإثارة الجدل، وتقديم تأويلات دون التأكيد على صحتها أو مطلقيتها فيضيف (القراءة الناجحة هي التي تكون "متواضعة "ليس معنى الخضوع للنص، وإنما بالتركيز على نسبيته ونسبية القارئ).[xxx]

ولعل أهم ما يميز قراءة كيليطو وما يخلق الدهشة هو وعيه بالمسافة التي تفصله عن النصوص التي يدرسها (وطريقة اندماج أفق التأويلي الخاص باعتباره قارئا عربيا حداثيا واعيا بوضعيته التأويلية مع أفق النص التراثي الذي يدرك جيدا المسافة التي تفصله عنه)[xxxi] وهي

المسافة التي يجب مراعاتها وعدم إغفالها لمن أراد قراءة النصوص القديمة، هذه المسافة التي ترمز إلى الغرابة، ستتقلص وتصبح باعثا من بواعث الجمالية في القراءة حسب رواد هذه النظرية.

5.2. القراءة التفكيكية :

لقد سبقت الإشارة آنفا إلى أن قراءة عبد الفتاح كيليطو للنصوص السردية أو النقدية تسعى إلى الاستفادة من التفكيكية دون أن تبرز ذلك كمنهجية، وذلك راجع لوعي الناقد بأن التفكيكية ليست بالنظرية ولا المنهج، إلا أن ذلك لم يمنعه من الاستفادة من آلياتها في القراءة في المواضع التي تتطلب ذلك، ولعل هذه الاستراتيجية التي يتوخاها الناقد في القراءة؛ أي الجمع بين عدة مناهج وآليات متباينة في قراءة نص واحد، هي ما منحه القدرة على التحكم في مساراته التأويلية، وامتياز قراءته بالعمق والشمولية والثراء كونها قراءة تستند إلى خلفيات ومرجعيات متنوعة ومتعددة.

ومن هنا سنحاول استجلاء مظاهر التفكيك في كتاب "الحكاية والتأويل" من خلال المؤشرات التالية:

القراءة في غياب المؤلف وتفسير النصوص ضمن سياقها العام؛ كون معظم النصوص السردية العربية القديمة تفتقر إلى مؤلف كحكايات" ألف ليلة وليلة "، مما يستدعي بالناقد إلى دراستها في ضوء النصوص العربية الكلاسيكية وسياقها الثقافي والتاريخي بشكل عام وهو ما يعبر عنه بأن- الحديث عما قصده هذا الأخير لا يتعدى مستوى الافتراض).[xxxii]

وهذا لا يعني أن "عبد الفتاح كيليطو" يلغي ما هو خارج النص في قراءته، إلا أنه بالإمكان تقديم تأويله للنص بعيدا عما يقصده المؤلف، ورغم جهله بهوية صاحب النص وهي القراءة التي تبتعد عن ربط النص بملامح المؤلف الايديولوجية أو الفلسفية او الفكرية...

القراءة التي تقوم على التعدد والاختلاف ولا نهاية المعنى، فلا يزعم كيليطو أنه يقدم تأويل أو مدلول نهائي للنص، إنها قراءة ترجع إمكانية انفتاح القارة أمام لانهائية الجمالية السردية، قراءة لا يزعم كيليطو أنه يملك كل أبعادها وجزئياتها (فكل ما في الأمر أنه يقترح قراءة لهذه النصوص)[xxxiii] قراءة من بين القارات الكثيرة والمختلفة، فتطرح تساؤلات وإشكاليات أكثر مما تقدم إجابات، إنها القراءة التي لا يمكن أن نوسمها بالثبوت أو الصواب أو الخطأ.

عملية التفكيك المستمرة للنص، وهي الاستراتيجية التي اعتمدها في معزم الدراسات التي قدمها فيعمد إلى النص يفككه إلى أجزاء ووحدات ومفردات وألفاظ، ومن خلال تقديم اللفظ ومرادفه ونقيضه يبحث عن المعنى في تعدده (فيُشعر القارئ أنه يسعى نحو القبض على معنى هارب ومتملص ومنفلت، أو أنه يخفي عنه المعنى أو يرجئه إلى حين)[xxxiv] وذلك في خضم عملية التفكيك المستمرة والاستعمال الحر للغة بوصفها متوالية لا نهائية من الدوال والمدلولات التي تقدم احتمالات وتأويلات متعددة ولا نهائية.

يقدم كيليطو أثناء التحليل أو التأويل معنى ثم ينفيه أو يحوله إلى معنى آخر وذلك باستدعاء المدلولات الأخرى للدوال اللغوية التي تكوّن النص، مما يوحي للقارئ بنسبية المعنى وكذا نسبية التأويل، الأمر الذي يفضي إلى وجود إمكانات لا نهائية لتأويل نص واحد وبناء معناه، ذلك من منطلق لا نهائية المدلولات التي تحويها اللغة وهي بصدد التفكيك.

فنجد الناقد يعمد إلى فك نسيج قصة "الصياد والعفريت" لإعادة نسجها من جديد على أنقاض القصة الأصلية وفق شبكة دلالية. تقوم على التداعيات والاشتقاقات للدوال اللغوية (وانطلاقا من تتبع مسارات الحكي لهذه القصة، وانطلاقا من بؤر وملامح عناصر المسار السردي خاصة ما تعلق منها بشخوص الحكاية "الصياد والعفريت")[xxxv] فيرى في موضوعة الحل والرابط سبعة عناصر أحصاها الناقد وحاول إبراز الدلالات التي تخيلها على هذه الموضوعة، وبالتالي فك شفرة الحكاية وتقديم تأويل لها، ويمكن توضيح ذلك من خلال المخطط التالي:

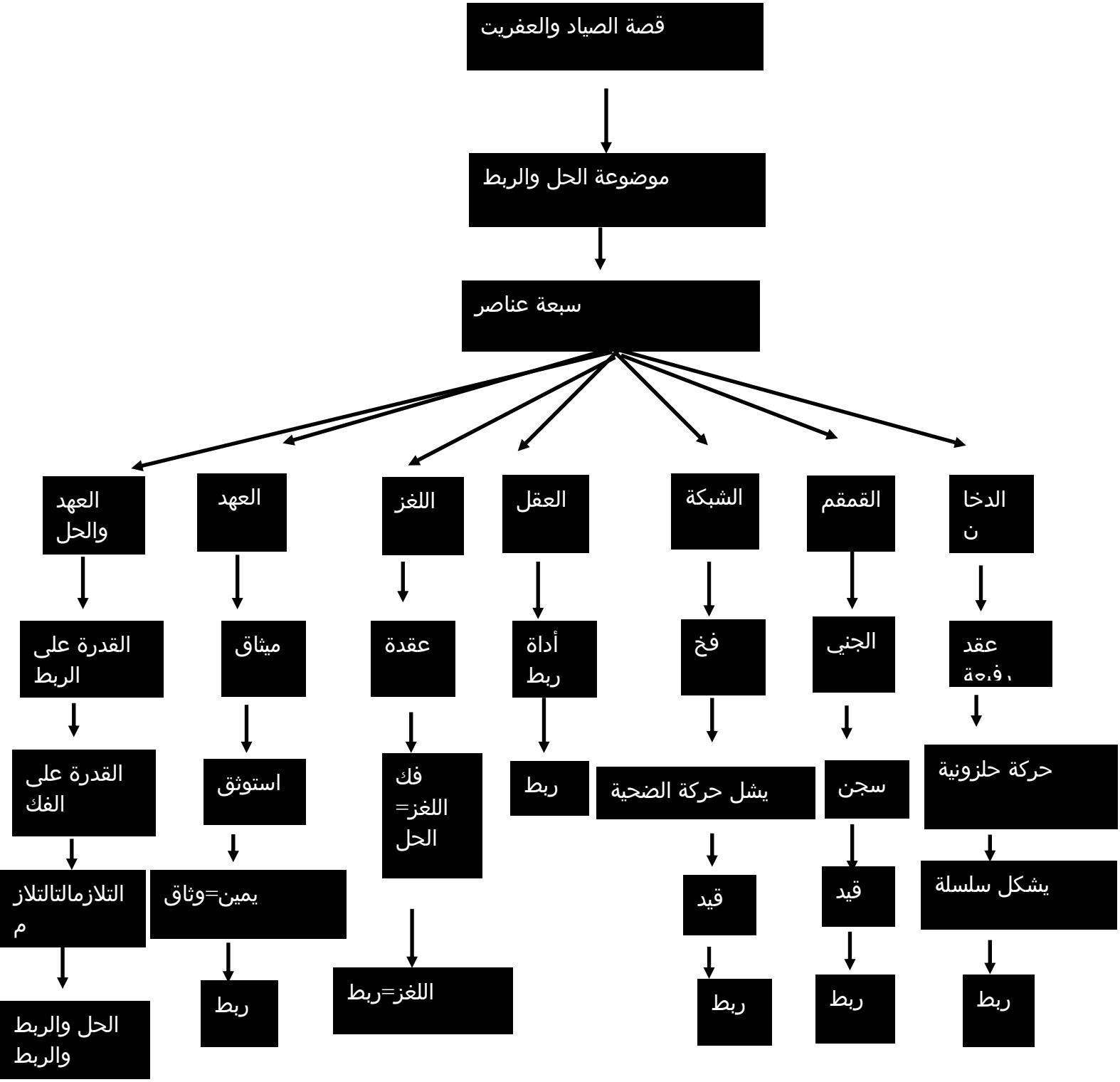

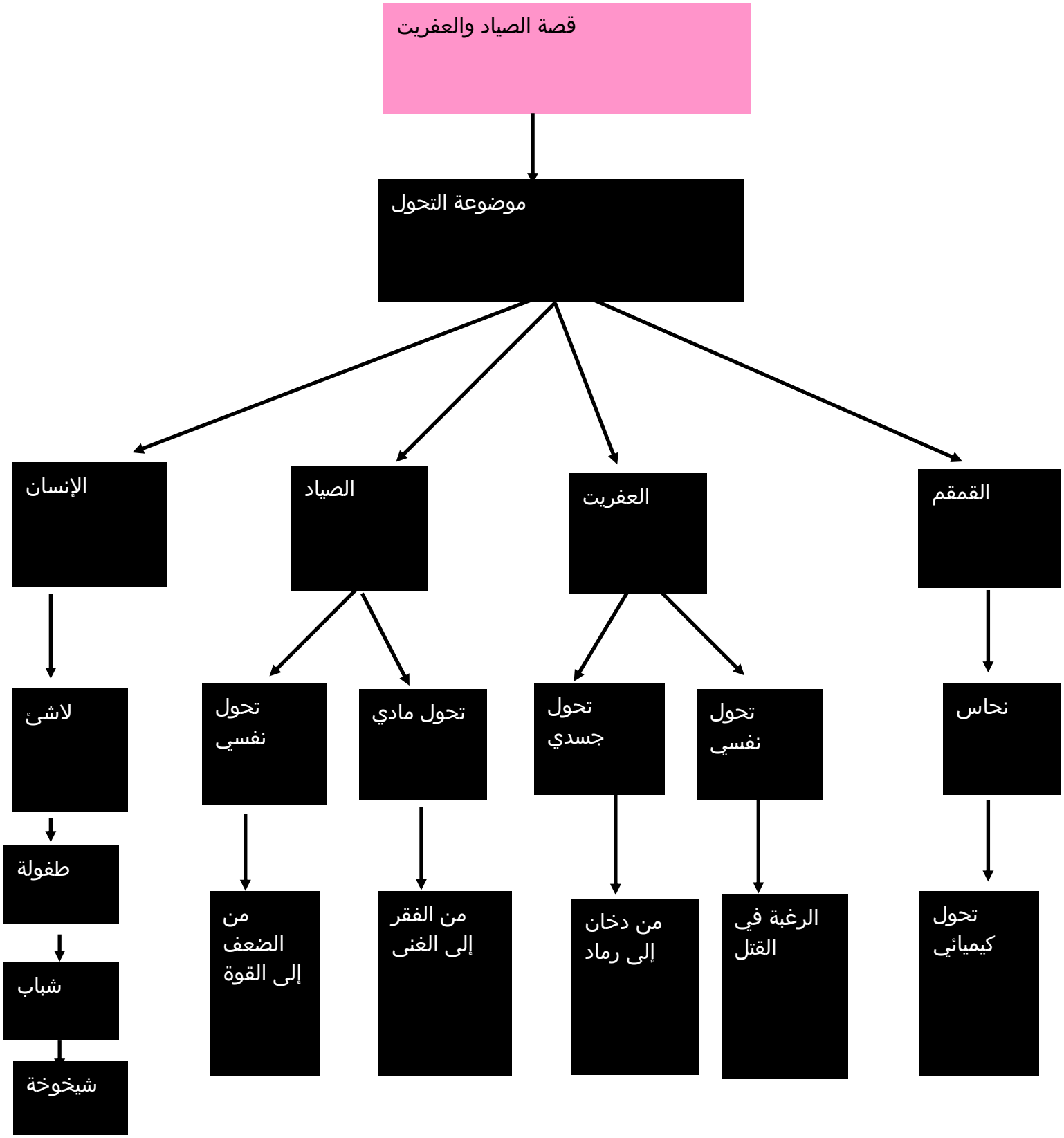
قصة الصياد والعفريت
موضوعة التحول
الإنسان
الصياد
العفريت
القمقم
لاشئ
تحول نفسي
تحول مادي
تحول جسدي
تحول نفسي
نحاس
طفولة
من الضعف إلى القوة
من الفقر إلى الغنى
من دخان إلى رماد
الرغبة في القتل
تحول كيميائي
شباب
شيخوخة

اقترح "عبد الفتاح كيليطو" تأويلا للحكاية يرى فيه الصياد العجوز بطلا يتغلب على العفريت المارد ويقوم بتقييده وتدجينه، ورغم صمت نص الحكاية عن وجود سلاح أو أداة ربط حيال ذلك، إلا أنه يرى في المفردات التي تتكون منها الحكاية ما يحيل على هذا الموضوع الحل/ الربط، فمن خلال عملية التفكيك هذه والبحث فيما تحويه هذه المفردات من دلالات أخرى محتملة أو غائبة استطاع أن يهتدي إلى ما تشترك فيه هذه المفردات من دلالة وما يربطها ويشدّها إلى بعضها البعض وتقديم تأويله في ضوء هذه العلاقة.

وعلى نفس المنوال يحاول كيليطو أن يجد تفسيرا لبعض المواقف والتفاصيل الواردة في الحياة مثل رؤية العفريت في قتل الصياد ورفضه الخروج من القمقم بموضوع التحول الذي يطرأ على كل من العفريت (الجني) والصياد، ثم أن ما تحويه مفردة "جن، جنين وجنون: من دلالات لغوية كانت خير معين له في استكمال تأويله للحكاية.

3. القضايا النقدية في الحكاية والتأويل:

1.3. انفتاح الأجناس الأدبية وتعالق النصوص:

من أهم القضايا التي تلفت انتباه القارئ لدى تصفحه لكتاب "الحكاية والتأويل" ذلك التجاوز لمسألة النوع أو الجنس الأدبي أثناء التحليل؛ وهذا لا ينم عن جهل الباحث الفوارق الموجودة بينها، إلا أنه لا يرى ضيرا في قراءة نص نقدي للجرجاني مثلا على غرار قراءة نص إبداعي، ويتجلى ذلك بوضوح في النظر إلى كتاب "أسرار البلاغة" على أنه يروي قصة أصلية في قوله: (بهذا المعنى يمكن القيام بدراسة موازية لأسرار البلاغة وكليلة ودمنة وألف ليلة وليلة، إنني طبعا لا أجهل الفوارق بين الأنواع، لا أجهل أن الثريا بعيدة كل البعد عن سهيل وأنهما لا يلتقيان أبدا بيد أنني عند قراءة أسرار الجرجاني ألمح فيه عناصر قصة أصلية، عناصر مشتتة سأحاول جمعها ولمها).[xxxvi]

فالتعاطي مع النص النقدي على أنه نص إبداعي أو قراءته قراءة إبداعية ذات أبعاد جمالية هي ما جعل عبد الفتاح كيليطو يلتفت إلى كلام الجرجاني المتضمن للصور المجازية والفنية فيلاحظ: (أنه عندما يتطرق إلى التشبيه والتمثيل والاستعارة، يستعمل بدوره التشبيه والتمثيل والاستعارة)[xxxvii] فالقراءة من هذه الزاوية؛ أي محاولة استجلاء الخطاب الفني البلاغي والخطاب الشعري المتضمن في الخطاب النقدي هو ما أسعف "كيليطو" في رسم ملامح القوة التي يحكيها الجرجاني.

فرفض فكرة الانغلاق على النوع الأدبي في دراسته وفق ما يسمح به حدود ذلك النوع هو ما يميز قراءة عبد الفتاح كيليطو، فباب التأويل لدى الباحث مفتوح على مصراعيه، يستوعب كل ما من شأنه أن يدخل في نطاق الأدب، وتأويله لإحدى المسائل الواردة في حكاية من الحكايات ينفتح على الشعر والخرافة والمقامة والأسطورة ومختلف الفنون الأخرى، ويتجاوز الحدود والتخوم الموضوع بينها إلى الاستفادة من هذا التنوع في المقاربة.

وهو الأمر الذي يتجلى في قصة "الصياد والعفريت" فعبد الفتاح كيليطو (يحكم سيطرته على الفحل التأويلي على نص الحكاية من خلال تطعيم مباحث قراءته، بقراءة متناصة من أشكال سردية أخرى خارجة عن محددات سياقها الثقافي، أي خارجة عن سياق محكي الليالي)[xxxviii] وكأنه يعمل إلى إنشاء خطاب حاضر على أنقاض نص ماض.

لقد تمت قراءة هذه القصة في ضوء أسطورة أوديب ملكا وذلك وفق مستويين: مستوى الموقف السردي: والمتمثل في لعبة المقايضة التي تخضع لها لعبة السرد وارتباط اللغز بالموت والإجابة عليه بالنجاة، وذلك وبالنسبة لـ "أوديب و سيفانكس" والصياد والعفيف على حد سواء، مستوى المضمون والمتعلق بطبيعة السؤال الذي طرحته "سفانكس"على" أوديب" والذي يقتضي موت أحدهما في النهاية بطبيعة السؤال الذي طرحه الصياد على العفريت والمتعلق بالسبب والكيفية التي تواجد بهما العفريت في القمقم (السجن).

وعلّل كيليطو سبب رغبة العفريت في قتل من يخلصه من هذا السجن (القمقم) بصدمة الولادة، وأكد أنه في كثير من المواضع والحكايات ما يؤكد هذه الصدمة فيستحضر مقطعا من مقام الحريري تتضمن سبب رغبة الجنين في البقاء في رحم أمه.

كما يجد في أبيات شعرية لـ"ابن الرومي" ما يدعم به تأويل في هذا الصدد، أبياتا يشرح فيها الشاعر سبب بكاء الطفل عند الولادة. وليس الشعر العربي وحده من يصف هذه الصدمة ويصور الحياة في رحم الأم حياة طمأنينة وسعادة والخروج إلى هذا العالم خروج الشقاء والتعاسة.[xxxix]

وفي نفس المضمار-ارتباط الأنواع والأجناس الأدبية- يقدم "عبد الفتاح كيليطو" قراءته للسيرة الذاتية (البيوغرافيا)، ويبدي إعجابه بالدراسة التي أجراها "فون غرونباوم"إسلام القرون الوسطى*لأنه هذا الأمر لم يدرس السيرة الذاتية بمعزل عن الشعر والتاريخ وغيرهما ويتجلى ذلك في حديثه عن هذه الطريقة في المعالجة بقوله:(وهذه الطريقة في البحث تبدو مهمة ،إذ على الرغم أن لكل نوع خصوصيته ،فإنه من المفيد تفحص العلاقة التي تربط كل نوع بالأنواع الأخرى المجاورة أو البعيدة)[xl]

فما يميز هذه الطريقة هو المنظور الشامل للأدب العربي الذي يضم تحت لوائه أنواعا وأجناس أدبية ذات علاقة وروابط وطيدة يمكن استثمارها في التحليل، فيصعب أن تجد من المرويات العربية القديمة مثلا ما يخلو من الشعر، أو أن تدرس السيرة الذاتية دون اللجوء إلى التاريخ هكذا... فكليطو ينتبه إلى الخيط الرابط الذي يشد المرويات العربية القديمة بأنواعها، ويؤكد أن دراسة هذه الأنواع السردية لن تتقدم ولن تحقق النتيجة المرجوة مادامت هذه الدراسات تنتهج التشخيص، والفصل بين الأنواع ذاهبا إلى أن (الحواجز التي نضعها بين الأنواع لها ما يبرره لكن تظل نسبية، فهناك خيوط كثيرة تشد الأنواع فيما بينها وعلى عدة مستويات بحيث لا يجوز لمن يدرس "ألف ليلة وليلة "مثلا أن يتجاهل تاريخ الطبري ورحلة ابن بطوطة وكتب التراجم).[xli]

فإذا كن المؤلف لا يعبر إلا بما يسمح له النوع الذي يطلب فيه، هذا النوع كما تحدده فترة ثقافية معينة[xlii] وعلى اعتبار أن النصوص وليدة سياقات تاريخية وثقافية واحدة، فإنها -من المؤكد-بينها روابط مشتركة في ناحية من النواحي، وكما سبقت الإشارة إلى أن كيليطو يُجيز إمكانية قراءة نص ضمن سياقه العام (الكلاسيكي) وفي هذه الحالة يصبح رفع الحواجز بين هذه الأنواع الأدبية عاملا إيجابيا في التحليل، ومساعدا على الولوج إلى النصوص ومقارنتها، وإثراء العملية التأويلية، ولكن كيليطو يقول بأن مسألة التجنيس هذه تنظيمية -تعليمية-ليس إلا.

2.3. نسقية القراءة وتثمين الدال اللغوي:

من المسائل الهامة والقضايا التي يبرزها كتاب "الحكاية والتأويل" اشتغال الناقد على اللغة، غالبا ما يعمد كيليطو في قراءته للنصوص على ما تكتنزه الدوال القوية التي تكوّن هذه النصوص، فهو يبحث بشكل مستمر عن انتظام ما يقع خلف النص وبنياته وفوق نسقية قرائية خاصة للنص الأدبي، قراءة تجمع بين الاشتغال على النص من منطلق نظري جاهز وفي الوقت نفسه إلى بناء نسبية خاصة بالنص وهي بصدد الاشتغال به.

(وذلك من خلال البحث عن شبكة من العلامات أو الأفكار أو الدوال اللغوية التي تربطها علاقات ووشائج دلالية بحث تقود كل علامة إلى أخرى على شكل سلسلة متصلة، غير أن كيليطو لا يقف عند الدلالة اللفظية للظاهرة بل يتعدى إلى الوشائج الخفية التي لا تظهر للعيان، التي تتطلب وتحتاج إلى تأويل ينفتح على مستويات مختلفة ومتعددة من القراءة بغية إظهارها).[xliii]

وللتدليل على ما سبق ذكره نقدم التأويل الذي قدمه كيليطو للأبيات الشعرية الواردة في كتاب" أسرار البلاغة "، فينبه إلى وجود مقصدية من وراء إدراج هذه الأبيات الشعرية بما فيها من تشبيهات ويقف عند علاقة خفية تشبه الخيط الرابط بين هذه الأبيات من جهة، وما ورد في بعض الأساطير أو ما ورد في كتاب "كليلة ودمنة "أو المقامات من جهة أخرى فيستعرض مجموعة من الصور هي:

- صورة الحجاب الذي يجب خرقه.
- صورة الكُم الذي يجب شقه.
- صورة الدّر في قعر البحر وتكلف الغوص إليه.
- صورة الشيء المرتفع وتجشم الصعود إليه.

- صورة النار الكامنة في الزند والتي لا تظهر إلا بالاقتداح.
- صورة عروق الذهب التي لا تنال إلا بالحفر عنها.[xliv]

فيذهب كيليطو إلى أن ما يجمع هذه الدوال: الشق والخرق والصعود والاقتداح والحفر، أنها ذات بعد جنسي، ورغم أن هذا التأويل يبدو غريبا للوهلة الأولى بالنسبة للقارئ لكن سرعان ما يغير هذا الانطباع في نفسه عندما يشرع في إظهار الوشائج الخفية التي تربطها وفي التنقيب عن هذه المدلولات، ليؤكد بالفعل وجود صلة بين هذه الصور ولو بشكل نسبي. يفسر كيليطو -على سبيل المثال- المدلول الجنسي للدّرة كالتالي:

- تشبيه الدّرة بالفتاة العذراء (وجود ما يؤكد ذلك في كتاب كليلة ودمنة).
- عملية ثقب الدّرة حتى تنتظم في العقد مماثلة لعملية فض غشاء البكارة عند الفتاة.
- مشقة الغوص لاستخراج الدّرة من قعر البحر هي نفسها مشقة افتضاض عذرية الفتاة.
- صعوبة استخراج الدّرة من الصدفة تقابل العجز الجنسي عند الرجل.

يدلّل كيليطو ويدعم تأويله هذا بنصوص واضحة للحريري الجرجاني تؤكد العلاقة بين الدّرة الفتاة العذراء وقول الشعر، فتأويل الناقد يبدأ بمنطوق العلامة اللغوية، ثم تتبع باقي العلامات وتؤول كل منها على حدة ثم في ارتباطها بسابقتها ولاحقتها ليخلص إلى أن (الدّرة ترمز إلى الفتاة البكر، إلى الكلام الرفيع الذي يتعذر الاتيان به أو اختراعه، الكلام الذي لابد من الغوص للعثور عليه، الحديث عن الشعر يوافق الحديث عن الجنس).[xlv]

وفي الشعر أيضا يجد المدلول الجنسي للنار من خلال الأبيات الشعرية الغزلية التي تتحدث عن الخرقة وشدة الوجد من العشق ولوعة الفراق، وعلى المنوال نفسه يربط كيليطو بين الصور سالفة الذكر.

يعتبر الناقد اللغة قادرة على أن تقول أكثر ما يريد صاحبها، واهتمامه بالدوال اللغوية في التأويل يتخذ عدة جوانب، فيتفحصها معجميا ونحويا ودلاليا وأسطوريا... علّه يجد ضالته فيها، فيورد في تحليل قصة الصياد والعفريت أن (كلمة جني مرتبطة صوتيا ودلاليا بكلمات أخرى بالجنون مثلا الجنين، وليس هذا الربط بين الجنّي والجنين من باب اللعب بالألفاظ وإنما هو من صميم اللغة).[xlvi]

فيورد نصوصا من لسان العرب تثبت العلاقة بين الجنّي والجنين، هذه العلاقة التي تفتح له رؤية في التأويل فيقول:(الصدفة وحدها(؟) جعلتني أتفحص لسان العرب وأنتبه إلى العلاقة بين جن وجنين إذّاك أخذت الخطوط العريضة لقراءتي للحكاية ترتسم وتتضح وتتأكد).[xlvii]

3.3. الهامشي في النصوص وفائض الدلالة :

منذ بداياته الأولى عوّد "عبد الفتاح كيليطو" قراءه على القراءة المنفردة والمفاجئة والمربكة، من خلال طرح التساؤلات التي تفضي إلى خلخلة الكثير من المفاهيم والتصورات أو على الأقل إعادة النظر فيها، ومن أوجه التميز والتفرد، اهتمامه بالهامش في النصوص والانطلاق منه لبناء عوالمهالتأويلية.

(فكيليطو يدخل عوالم السرد العربي القديم من بابه الصغير جدا من خلال شذرة التقطها من نصوص قديمة، من قطع متناثرة وبيئية وحكايات صغيرة يلملم أشتاتا ودون كثير من الثرثرة والجدال يقدم قراءته المبدعة).[xlviii]

فكيليطو عندما يقرأ الجاحظ أو المعري أو حكايات الليالي فإنه ينتبه إلى سطر أو سطرين إلى بيت شعري... فتكون هذه التفاصيل هي الدافع من وراء الكتابة وخوض هذه المغامرة - كما يسميها - فيبحث عن الخيوط الرفيعة لاستشراف البعيد والقصصي.

والهامشي في كتابات كيليطو يأخذ عدة جوانب ومستويات بدءا بالفنون أو الأنواع المهمشة وهو الأمر الذي يتراءى لنا من خلال أفراد دراسة حول فن "اللعب والسخرية " مشيرا إلى مسألة إغفال هذا الجانب المهم من المرويات العربية القديمة وعزوف الدارسين عنه واحتقاره في قوله: (صحيح أن بعض الدارسين يتطرقون إلى طهارة الهزل، ولكنهم ينتفن بأخبارها أمرا غريبا أو حشيا

لا يستحق وقفة طويلة)[xlix] منددا بأن العناية بهذه الألوان النثرية سيغير نظرتنا اتجاه الأدب الكلاسيكي ويفتح آفاق وميادين ثقافية غير متوقعة.

ويتجلى الهامشي أيضا في البحث عن الشخصيات والأسماء الموشومة في ذاكرة الماضي، مثل أبي العبر وسمكته.

ومن زاوية أخرى نجد ما يستدعي انتباه كيليطو في كتاب" التشوف" هو الترجمة الشحيحة التي تفتقر إلى بداية ونهاية وإلى الحوادث حول "أبي سهل " ومخلاته، هذه الأحداث التي يمكن أن تساعد الباحث في تحليله وتأويله.

إلا أن "كيليطو" قد فجّر من هذه الإشارات والعبارات -على قلتها سلسلة من الاحتمالات والتأويلات التي لا تنفي إحداها الأخرى، ففي تأويل سبب كلام الجمل مع أبي سهل يرى أن (كل الاحتمالات ممكنة مادام النص لا يشير إلى اللهجة التي استعملها الجمل لمخاطبة صاحبنا، لهجة الآمر الذي لا يناقش قوله؟ لهجة الناصح الودود؟ لهجة المشفق الحنون؟ هذه الاحتمالات لا تنفي احتمالا قد لا يكون مناسبا ومع ذلك لا يجوز إهماله قبل تفحصه).[l]

أما إذا تناول ناقدا نصا غير مغمور فإنه لا يتوانى عن الوقوف عند المعاني الخفية ودلالة التفاصيل التي قد يراها القارئ هامشية لا تسترعي انتباهه، هامشي التفاصيل وهامشية النصوص لا تخل من فائض معنى تكشف عنه آليات التأويل، ولذلك فإنه لن يقرأه كما قرأ الجميع وإلا فما الحاجة إلى إعادة القراءة؟ فكيليطو يؤمن بقدرة القدامى لم يقولوا كل شيء، فيمعن النظر بين السطور في العبارات والأجزاء التي لا تبدو أنها ذات صلة وثيقة بمضمون النص أو تنامي أحداثه، فيبدأ بمساءلة نفسه ومساءلة القارئ قصد إرباكه ومطالبته بإعادة القراءة من زاوية أخرى، على غرار قراءته لقصة الصياد والعفريت وتنبيه القارئ إلى ضرورة الالتفات إلى بعض التفاصيل التي لا يعتقد أنها وضعت جزافا، أو أنها واقعة موقع الاعتباطية أو وليدة الصدفة، كالتساؤل عن كون عدد أبناء الصياد ثلاثة؟ وعن تلك العادة التي تدفع الصياد إلى عدم تجاوز المحاولة الرابعة لرمي الشبكة؟ وعن الفترة المحددة لبقاء الجنّي في القمقم بألف وثمانمائة سنة؟ وعن خضور هاجس الموت المتمثل في مجازاة العفريت لمن خلصه من السجن بالقتل؛ وهو أمر مخالف للتصورات السائدة؟[li]

فكيليطو يرى في هذه التفاصيل التي تبدو عرضية، ألغازا تستفز القارئ د وتحفزه على المضي لإيجاد تفسير لها، خصوصا وأنه يشير في هامش كتابه إلى أن بعض هذه الأرقام يتكرر في الحكايات الموالية والمصممة لحكاية الصياد.

4.3. معطى الغرابة:

يعتبر مفهوم الغرابة من المعطيات التي شغلت الناقد "عبد الفتاح كيليطو" وتعرض إليه في أكثر من موضع، بداية بكتابه الذي عنونه بـ "الأدب والغرابة " فيجعل من الغرابة الخيط الرابط للدراسات التي تنوع ما بين المقامة وحكاية السندباد وملحمة الإعراب، فموضوع الغرابة عند عبد الفتاح كيليطو يشمل مختلف مظاهر الثقافة العربية[lii] ويشير إلى أنه من المستحيل دراسة الأدب بمنأى عن الغرابة.

لطالما ربط "كيليطو" مفهوم الغرابة بالألفة، وعبر عنها بالفارق الزمني الذي ينشأ بيننا وبين الأشياء المألوفة عادة، فما يبدو غريبا من أشياء ومصطلحات هي في الحقيقة أشياء نستعملها بشكل يومي لكن مع شيء من التغيير. يشير "كيليطو" إلى هذه المسافة التي تفصل الدارس عن نصه المدروس -الغرابة- وعبر عنها بالعتبة التي لا ينتبه إليها عادة الدارسون أو يتجاهلونها، بينما يرفض البعض الآخر تجاوزها.

يتابع "كيليطو" في المسار نفسه حاملا بذور الغرابة في دراسته مع كتاب الحكاية والتأويل مشيرا إلى (أنه لا يجب النظر إلى الغرابة على أنها نقيض الألفة بل قد يكون في بعض الأحيان المألوف جدا هو سر الغرابة).

ويشرح كيليطو هذا المنظور باستدعائه لبيت أبي تمام:

كم منزل في الارض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

فيتساءل "كيليطو" عن المنزل الذي يحن إليه الشاعر أهو المنزل الحالي أم المنزل المندثر، فالمنزل الذي ترعرع فيه الشاعر وكان مألوفا، يصبح غريبا هذا التحول والانتقال من المألوف إلى الغريب هو الذي يعطيه أهميته، وعلى هذا الأساس يصبح كل حديث عن الغرابة هو بالضرورة حديث عن الألفة.

4. خاتمة

بعد هذه الجولة بين طيات وصفحات كتاب "الحكاية والتأويل" في محاولة للوقوف عند الاتجاه النقدي لـ "عبد الفتاح كيليطو" والإلمام بأهم سيمات تجربته النقدية يمكن أن نجمل ما توصل إليه البحث:

تمتاز دراسات كيليطو بالاستفادة من المنجز النقدي الغربي في قراءة النص الأدبي، لهذا غالبا ما يعمل في دراسته إلى تطعيم النص العربي القديم بالمنظور النقدي الحديث مما يشي بولادة اتجاه جديد في الدراسات لم تعهده الساحة النقدية العربية، كما يتجاوز مستوى التنظير ويلج بوابة التطبيق المنهجي بشكل مباشر مما ينم عن استيعابه لجملة النظريات والمناهج العربية وأخذه للمعرفة من منابعها الأصلية.

كما يرى في النصوص العربية الكلاسيكية أصالة وسحرا يجعلها معينا لا ينضب للقراءة والتأويل فلا يمكن أن تبوح بكل أسرارها دفعة واحدة، وعدم كفاية منهج واحد على استنطاقها والوقوف عند أبعادها الجمالية ما يجعله يدرس الأدب في ضوء علوم أخرى.

يرفع كيليطو الحواجز بين الأجناس الأدبية ويزيل التخوم الموجودة بينها ويجعل من هذه الحواجز بوابات تفتح آفاق جديدة للتأويل، وتعمد هذه التأويلية إلى سبر أغوار النص وفق توليفة إجرائية تستدعيها طبيعة النص نفسه.

يتكئ الناقد على خلفية معرفية تتميز بالاتساع والتنوع الأمر الذي يتراءى من خلال قراءة النصوص بآليات متنوعة تكاد تكون غير منسجمة في بعض الأحيان كالجمع بين المناهج السياقية والنسقية في آن، على غرار القراءة النفسية لثنائية الألفة والغرابة، واتباع آليتي الوصف والتحليل لأبنية النصوص وعوائقها الداخلية واعتماد فكرة التقابلات في التأويل.

أولى كيليطو للقارئ عناية كبيرة فاتحا أمامه أفق التأويل من خلال الطابع الحواري وتوظيف مفاهيم نظرية القراءة والتلقي كالمسافة الجمالية...

تتخلل قراءاته النزعة التفكيكية من خلال الاهتمام بالهامشي من النصوص، والهامشي بها وعملية التفكيك المستمرة للدوال اللغوية واعتبار اللغة قادرة على أن تقول أكثر مما يريد قائلها، وانفتاح النص على الأنساق الثقافية كونه متضمن لسياقات إنتاجه وتشكله.

كما تبتعد هذه التأويلية عن الاستعمال المكثف للجهاز الاصطلاحي والمفاهيم النقدي المعقد، لهذا يمتاز أسلوبه بالسهولة والتركيز، بذلك تبتعد كتابته النقدية عن المعيارية وتقترب من الكتابة الإبداعية دون أن تفقد طبيعتها النقدية مما يجعل القارئ يشعر بمتعة ولذة قراءتها.

5. الهوامش:

[i] - فؤاد عناني: نظرية التلقي...رحلة الهجرة، دار دينوري للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا ،2011م، ص278

[ii] - عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط3 2006، ص06

[iii] - المرجع نفسه، ص 06

[iv] - سامي عبابنة: التفكيكية وقراءة النص العربي القديم، عبد الفتاح كيليطو نموذجا، دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 42، ملحق 1-2015

[v] - المرجع نفسه، صن

[vi]- عبد الفتاح كيليطو :مسار، دار توبقال للنشر ،الدار البيضاء ،المغرب ،ط1، 2014،ص 34

[vii] - المرجع نفسه، ص34

[viii]- بروكوست هذا قاطع طريق يوناني يعمد على تعذيب ضحاياه، من خلال وضع الأشخاص طويلي القامة على فراش قصير وقطع أرجلهم حتى تتلاءم مع حجم الفراش، أما الأشخاص قصيري القامة فيضعهم على فراش طويل ويقوم بسحب أرجلهم لنفس الغرض.

[ix]- عبد الفتاح كيليطو، مسار، ص07

[x]- عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ،المغرب، ط1، 1986، ص12

[xi] - المقصود بغياب المؤلف، عدم إثبات هوية النص مثلما هو الحال في حكايات ألف ليلة ولية.

[xii]- المصدر نفسه، 23

[xiii]- جميل حمداوي: الحداثة النقدية في كتاب الادب والغرابة لعبد الفتاح كيليطو، بقلم الجمعة، 20 تشرين الأول (أكتوبر) 2006م، ص،183

[xiv]- عبد المالك مرتاض، النص الأدبي من أين إلى أين، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر ،دط ،دس،ص54-55

[xv]- الحكاية والتأويل، ص70

[xvi]- المصدر نفسه، ص ن

[xvii] - الحكاية والتأويل، ص19

[xviii]- المصدر نفسه، ص19

[xix]- المصدر نفسه، ص07

[xx] - المصدر نفسه، ص 42

[xxi]- عبد الفتاح كيليطو ، مسار،27

[xxii]- الحكاية والتأويل، ص24 -25

[xxiii]- المصدر نفسه ، ص 13

[xxiv]- المصدر نفسه، ص 13-14

[xxv]- المصدر نفسه، ص 33

[xxvi]- المصدر نفسه، ص ن

[xxvii]- المصدر نفسه 49

[xxviii]- المصدر نفسه ص70

[xxix]- عبد الفتاح كيليطو ، ص19

[xxx]- المرجع نفسه، ص ن

[xxxi]- مُحَمَّد البشير مسالتي: السرد العربي القديم وآفاق التأويل، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قاوست ،2013م، ص96

[xxxii]- الحكاية والتأويل، ص 23

[xxxiii]- المصدر نفسه ،ص06

[xxxiv]- إبراهيم أزوغ :نسقي القراءة ولغة الإبداع لعبد الفتاح كيليطو، مجلة نزوى، دراسات ،1يونيو2017م،ص04

[xxxv]- إبراهيم أزوغ، نسقية القراءة ولغة الإبداع، ص04

[xxxvi]- الحكاية والتأويل، ص 08

[xxxvii]- المصدر نفسه، ص ن

[xxxviii]- عبد القادر نورة:تأويل السرد، قراءة في الخصوصية النقدية لكتابات عبد الفتاح كيليطو، أطروحة دكتوراه، تخصص نقد أدبي، جامعة محمد لمين دباغين، ص،259

[xxxix]- ينظر: الحكاية والتأويل، ص30-31

*جزء من هذا الكتاب خصص للمقارنة بين السيرة الذاتية عند العرب واليونان والرومان

[xl]- المصدر نفسه، ص70-71

[xli]- المصدر نفسه، ص06

[xlii]- المصدر نفسه، ص71

[xliii]- إبراهيم أزوغ:نسقي القراءة ولغة الإبداع لعبد الفتاح كليطو، ص03

[xliv]- ينظر الحكاية والتأويل، ص12-13

[xlv]- الحكاية والتأويل، ص15

[xlvi]- الحكاية والتأويل، ص30

[xlvii]- المصدر نفسه، ص ن

[xlviii]- صليحة بن جني، بلقاسم مالكية :عبد الفتاح كيليطو وقراءة التراث الأدبي، قراءة الشذرات نموذجا ، مجلة الأثر ،جامعة ورقلة ،الجزائر ،العدد 29،ديسمبر 2017،ص03-04

[xlix]- المصدر السابق ،ص45

[l]- الحكاية والتأويل ،ص65

[li]- المصدر نفسه،ص24

[lii]- عبد افتاح كيليطو: الأدب والغرابة، ص10

مراجع الدراسة:

1. إبراهيم أزوغ:نسقي القراءة ولغة الإبداع لعبد الفتاح كيليطو، مجلة نزوى، دراسات ،1 يونيو 2017م.
2. جميل حمداوي:الحداثة النقدية في كتاب الادب والغرابة لعبد الفتاح كيليطو، بقلم الجمعة ،20 تشرين الأول (أكتوبر) 2006م.
3. سامي عبابنة: التفكيكية وقراءة النص العربي القديم، عبد الفتاح كيليطو نموذجا، دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 42، ملحق1-2015.
4. صليحة بن جني، بلقاسم مالكية: عبد الفتاح كيليطو وقراءة التراث الأدبي، قراءة الشذرات نموذجا، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد29، ديسمبر2017.
5. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، المغرب ،ط3 2006.
6. عبد الفتاح كيليطو: الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدارالبيضاء، المغرب، ط1 ،1986.
7. عبد الفتاح كيليطو: مسار، دار توبقال للنشر، الدارالبيضاء، المغرب، ط1، 2014.

8. عبد القادر نورة:تأويل السرد، قراءة في الخصوصية النقدية لكتابات عبد الفتاح كيليطو، أطروحة دكتوراه، تخصص نقد أدبي، جامعة محمد لمين دباغين.
9. عبد المالك مرتاض، النص الأدبي من أين إلى أين، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، دط، دس.
10. فؤاد عناني: نظرية التلقي... رحلة الهجرة، دار دينوري للدراسات والنشر والتوزيع سوريا ،2011م.
11. محمد البشير مسالتي: السرد العربي القديم وآفاق التأويل، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قاوست، 2013م.